"عملٌ يَنمّ عن نضج وواقعية بصورة فذّة... تتنقل الكاتبة بسهولة بين الدراما العاطفية المكثّفة والكوميديا"
- صحيفة ذا صن هيرالد

"إنه كتاب خاص ذو تأثير عميق"
- صحيفة كانبرا تايمز

رندة عبد الفتاح

حينما كان للشوارع أسماءٌ

عن المترجمين

نبيل نويرة يعمل كاستشاري لإحدى الشركات الأمريكية العاملة في مصر. قام، ضمن مهام عمله، وأيضًا بصفة مستقلة، بترجمة العديد من الوثائق والمقالات والكتب في مجالات مختلفة من وإلى اللغة العربية. أحدث أعماله ترجمة رواية «بيت العائلة» لسامية سراج الدين من الإنجليزية إلى العربية (٢٠٠٩).

أميرة نويرة أستاذ الأدب الإنجليزي في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية ورئيس القسم سابقًا. ترجمت إلى العربية كتاب سوزان باسنت «الأدب المقارن: مقدمة نقدية» (١٩٩٩). وترجمت إلى الإنجليزية، بالاشتراك مع عزة الخولي، رواية إقبال قزويني «ممرات السكون» (٢٠٠٨)، كما شاركت في تحرير كتاب «المرأة تكتب إفريقيا - منطقة شمال إفريقيا» الذي صدرعن Feminist Press (٢٠٠٩).

شكر وتقدير

أشعر بعظيم الامتنان للكثيرين الذين كانوا مصدر الإلهام لهذا الكتاب وفي مقدّمتهم زوجي إبراهيم، فبدون مساعدته ومؤازرته لي لكي أستطيع التوفيق بين متطلّبات الأمومة وأعمال المحاماة والكتابة لم يكن هذا الكتاب ليرى النور. أشكر أيضًا والدي ووالدتي وأسرتي لوجودهم معي ووقوفهم إلى جانبي دومًا.

أودّ أيضًا تقديم شكري لوكيلة أعمالي المتميّزة شيلا دراموند لمساندتها التي لا تتزعزع ولنزاهتها ومشورتها الفنّية السليمة، وأيضًا إلى محرّرة الكتاب المتألّقة ماريون لويد لحماستها وشجاعتها ورؤيتها الثاقبة.

وأبتسم. إنّ الماضي يمكن أن يعذّب ويشفي على السواء. إنّني سأفعل أكثر من مجرّد البقاء. أنّنا جميعًا في النهاية لسنا سوى مخلوقات بشرية تضحك نفس الضحكة، وإنّ العالم يومًا ما سوف يُدرك أنّنا ببساطة نريد أن نعيش كشعب حرّ، له أمل وكرامة وهدف. هذا هو كلّ شيء.

«چيهان» يقول أحمد بلطف ورقّة، وهو يلمس ذراعها. «السيّارة في الانتظار.»

يصرّ بابا قائلًا: «ويجب علينا أن نبدأ تحرّكنا.»

تحيطني چيهان بحضن هائل وأجاهد حتّى لا أبكي. بعد ذلك تتراجع هي وتبتسم لنا جميعًا. تصيح قائلة: «يا للإثارة والبهجة! أنا متزوّجة!»

تبدأ ستّي زينب تزغرد وتضحك ماما وهي تمسح الدموع من وجهها. تهمس الريح في أشجار الأناناس والزيتون، مخبرة إيّانا أن ندعها تمضي.

وفي النهاية نفعل نحن ذلك.

في طريق عودتنا الطويل الذي قطعناه بالسيّارات أريح رأسي على كتف بابا، أحدّق في ليلة مليئة بالنجوم وأفكّر في الأسابيع القليلة الماضية.

عمري ثلاث عشرة سنة وأعرف معنى الدم. أعرف ماذا يعني أن نفقد الأحبّة. أعرف رائحة الجثّة. أعرف شكل الجسم يُسوّى تحت دبّابة. أعرف سُحب التراب والغبار التي يخلّفها بلدوزر مسعور. سوف يتمّ الانتهاء من الجدار قريبًا. سوف تُهجَّر أجزاء كاملة من بيت لحم. سوف تغلق الأعمال، تُهجر البيوت، تخلو الشوارع، تقسم المدارس إلى نصفَين. إنّني أعيش في سجن مفتوح.

ولكنّني لن أعيش في يأس. لأنّ عمري ثلاث عشرة سنة وهذا ما أعرفه أيضًا.

إنّه طالما كانت هناك حياة سوف يكون هناك حبّ. إنّني سوف أتعلّم أن أحبّ المرآة بكلّ تأكيد مثلما تعلّمتُ أن أفكّر في مايسة

«يجب عليكم ذلك! يجب عليكم ذلك! تنفجر ماما في نوبة جديدة من الدموع ويتقدّم بابا في شيء من الخجل باتّجاه ماما، لافًّا ذراعه حولها.

«عودي معنا!» يصرخ طارق، متشبّثًا بفستان چيهان. ولمّا كان قد تعب وأصابه الإرهاق من البقاء مستيقظًا بعد وقت النوم بكثير، فإنّه يبدأ في العويل، حاثًّا بابا على أن يحمله. يريح طارق رأسه على كتف بابا وينشج بالبكاء.

يقول أحمد: «سوف أعتني بها. إنّني أعدكم جميعًا.»

يقول بابا: «نعرف أنّك ستعتني بها.»

«سوف أحطّمك إذا سمعتُ أيّ شيء غير ذلك» – تقول ستّي ذلك ونضحك نحن.

ماما تذكر چيهان قائلة: «استشيريني في وصفات الطعام! واتّصلي بي كلّ يوم. أيّ وقت جيّد، ولكن من الأفضل أن تتّصلي بي بعد العشاء حتّى يمكنني أن أتحدّث معك بدون مقاطعة. وأنت يا أحمد، أعدك أنّني سأرسل لك الخيار المخلّل الذي أصنعه. أعلم مدى حرمانك من الخيار المخلّل الجيد. و...»

تتقدّم چيهان باتّجاهي خطوة، تاركة أحمد ليتعامل مع ماما. تأخذ يدي وتشدّني قريبًا منها. أعانقها بقوّة وتقبّلني هي.

تقول هي: «يجب أن تزوريني. أعلم أنّ ذلك صعب ولكن حاولي من فضلك.»

«بالطبع سوف نفعل».

«واتّصلي بي. كثيرًا قدر استطاعتك. أطلعيني على آخر الأخبار حول الثرثرة والقيل والقال في بيت لحم.»

«حسنًا، إذا كنت أنت قد نجحت في الهروب من سيّارة الجيب، فإنّني نجحت في قيادة سيّارة يوسي بين الدبّابتين.»

ينظر إليّ نظرة مرتابة. «هذا رائع. لماذا لم أفكّر أنا في ذلك؟»

بعد الخطب، نوحّد أنا وسامي جهودنا ونرعبُ أبناء عمومتنا ونؤثّر عليهم. عندما نكتفي من هذه اللعبة، آخذ مقعدًا إلى جوار ستّي زينب، أسند رأسي على كتفها.

نحدّق في چيهان وأحمد، حيث يقوم صفّ طويل من الضيوف بتقبيلهما قبلات الوداع.

«سوف أفتقدها، هذه الوغدة»، تقول ستّي زينب لي وتمسح عينَيها. «ولكنّها تبدو سعيدة للغاية. منحهم الله السعادة والكثير من الأطفال. حماهم الله وأُسَرَهم وأمّ أحمد...»

للمرّة الوحيدة أتركها تواصل كلامها دون مقاطعة.

يقترب المساء في آخر الأمر من نهايته. ينبغي علينا أن نغادر أبكر من المعتاد حتّى نضمن عبور نقاط التفتيش قبل أن تغلق.

يقول بابا في لهفة: «ياللا، ياللا. لا يمكننا المجازفة بأن نعلق في رام الله. يجب أن نعود قبل أن يغلقوا البوّابة.»

نمسك بچيهان بقوة تحت سماء سوداء كالحبر وتحت صفّ من نجوم لامعة مشرقة، ودموع الفرح والحزن تنساب منهمرة على وجوهنا.

تنتحب ماما وهي تتشبّث بچيهان قائلة: «عيشي في بيت لحم. أرجوك يا أحمد لا تأخذها منّا.»

تقول چيهان وهي تغالب الدموع: «لا بأس يا ماما. سوف... نزوركم... إنّني... أعدك.»

«إنقاذي! ماذا عن يوسي؟» أهزّ رأسي في غير تصديق ولكنّه يتجاهلني.

«واو!» تقول نوال بصوت عالٍ: «إنّك شجاع جدًّا.»

يعلن حكيم قائلًا: «هذا مذهل!»

أقول: «بعض الأسئلة. هل تركك الجنديّ تمامًا بدون أيّ شخص يقوم على حراستك؟ هل ترك السيّارة الجيب هكذا مفتوحة تمامًا؟ هل تخبرني أنّه أراد أن يعطيك بعض الهواء المنعش؟ ولماذا هذه هي المرّة الأولى التي أسمع فيها عن...»

يقول سامي، وهو يقف: «أوه، انظروا، إنّهم يبدؤون الخطب. من الأفضل أن نذهب. سوف تصاب عمّتي بنوبة إذا لم أكن أنا على الطاولة. إنّها تهتمّ حقًّا بالسلوكيات، تعرفون هذه الأشياء.»

«نعم، نعرف ذلك» – يقول حكيم متنهّدًا وتومئ نوال برأسها في حماسة.

تقول نوال: «تعال للقائنا عندما ينتهون. أريد أن أسمع كلّ شيء عن طريقة إنقاذك لحياة!»

أنطلق مندفعة ويتبعني سامي، وهو ينهار من الضحك.

أقول أنا: «أنا لا أرى أنّ هناك نكتة.»

«أوه، على رسلكِ، كان الأمر ممتعًا! هل رأيتِ وجهَيهما؟»

«إنقاذي؟ ماذا ستقول؟ وصلت في سيّارة باتمان؟»

يضرب يدَيه. «لا بدّ أنّهم قد انخدعوا بذلك! على أيّة حال، كان حفل الزفاف مملًّا. كان لزامًا عليّ أن أضيف له بعض التوابل.»

أزمجر أنا ويضحك هو مرّة أخرى.

«على رسلكِ، دعينا نرى إلى أيّ مدى يمكننا أن نستمرّ.»

يلوّح لي سامي تلويحة ازدراء. «لم يودّ أن يثيرك أكثر من ذلك.»
يلتفت إلى نوال وحكيم. «بعد أن فقدتني حياة...»
«معذرة، أنت فقدتني.»
تقول نوال: «دعيه يكمل.»
يضيف حكيم: «نعم، يا حياة، نريد أن نسمع.»
أعبس في وجوههم وأثني ذارعَيّ فوق صدري. «حسنًا، استمرّ. إنّني أبحث دائمًا عن سرد القصص والحكايات وأتوق إليها.»
تبتسم نوال وحكيم لسامي ابتسامات الدعم والتأييد. يرسل سامي إليّ نظرة منتصرة وهو ينفخ صدره.
«أمسك جنديّ بيّ! ألقى بجوّال على رأسي وجرّني إلى سيّارة جيب.»
«ماذا فعلوا بك؟»
«هل عذّبوك؟ إنّنا نعرف شخصًا – سفيان – تمّ إلقاء القبض عليه في القدس دون تصريح. لقد ضربوه ضربًا مبرحًا. ماذا فعلوا بك؟»
«أخبرنا يا سامي!»
«نجحت في الهرب. انتهزت فرصة الفوضى وانسللت بعيدًا هاربًا. لا بدّ أنّ الجنديّ كان جديدًا في الخدمة. لم يقيّد يدَيّ ولا قدمَيّ. ولكنّه هدّد بوضع أقطاب كهربائية في حلمات صدري وإطلاق الكلاب عليّ. عندما ألقى بي في سيّارة الجيب السوداء وسار بعيدًا ليجمع المزيد من الأشخاص، نزعت الجوّال عن رأسي وتسلّلت خارجًا من السيّارة. كان الهواء مملوءًا بالدخان وكان صوت الطائرة عاليًا حقًّا ولذلك فقد استطعتُ أن أهرب عائدًا إلى الشوارع لإنقاذ حياة.»

بشكل محموم حول أحمد وچيهان.

يتفاخر سامي وهو يأخذ قضمة كبيرة من كعكته قائلًا: «إذن نعم، قد ألقينا نظرة على القدس.»

«أبدًا مستحيل!»

«لم تفعل ذلك، أليس كذلك؟»

يهزّ سامي رأسه ويهزّ كتفَيه بشكل عرضي لنوال وحكيم. «كان الأمر سهلًا. قفزنا على الجدار وصرنا داخلها. كان معنا إسرائيليون. أحبّتهم حياة في الحال ولكنّني لم أنخدع للحظة. فقط تجاهلوا حياة وهي تدير عينَيها هناك. على الأقلّ كان لزامًا أن يكون واحد منّا داهية. كان عليّ أن أحلّلهم أوّلًا. أقيّم ما إذا كانوا من الموساد أو الشاباك. أنا أعرف هذه الأشياء، بسبب والدي. يمكنني أن أكتشف العميل من على بعد ميل. ولكنّهم كانوا على ما يرام في النهاية.»

«واو» – تصرخ نوال بصوت منخفض وأشعر أنا بالاختناق.

يقول حكيم: «إذن أخبرنا بالمزيد.»

يخلّل سامي أحد أسنانه وبعد ذلك يميل برأسه إلى الجانب. «حسنًا، نجحنا في الوصول للمدينة القديمة ولكن كان هناك احتجاج ضخم. كانت هناك دبّابات وطائرة وصاروخ أو اثنان.»

«سامي!»

«حياة، أنت فقدت الوعي، هل تذكرين؟ لم تكوني في معمعة الحدث. لم أشرح الموقف بالكامل لك أبدًا.»

«كلا، ولكن يوسي شرح لي الموقف ولم يذكر قطّ الطائرات أو الصواريخ.»

من الكفّ المبلّلة بالعرق للسيّدة الضخمة التي توجد إلى جواري. ينحني قريبًا من أذني، زاعقًا بأعلى صوته ليتأكّد أنّني أسمعه فوق صوت الموسيقى العالي إلى حدّ يُصيب بالصمم يقول: «تعرقل والد أحمد وسقط وهو يدخل!»

وأطلقت نوبة من الضحك. «كلا!»

«كان ذلك مسلّيًا. تشابكت قدمه في السجّادة وسقط للأمام. كان بخير مع ذلك. ولكنّ وجهه كان أحمر لامعًا!»

يرفع الحشد أحمد فجأة على أكتافهم وبعد ذلك يرفعون چيهان على كرسي. ألهث، داعية ألا تسقط على الأرض.

أخبر أنا سامي قائلة: «توجد ملاءة حريرية على الكرسي!»

«إذن؟»

«سوف ينزلق فستانها! سوف تقع! تبدو مرعوبة.»

«كلا لا تبدو مرعوبة. إنّها تضحك. يبدو أحمد أكثر قلقًا. هذان الشخصان اللذان يرفعانه عاليًا لا يبدو أنّ لديهما من اللحم ما يكفي لحمل محمّد ورفعه.»

لكنّهما لا يقعان. تسطع أضواء الثريات على وجه چيهان الدافئ الذي يشعّ حيوية، بينما يمسك أحمد يدَيها في الهواء والحشد يغنّي ويصفّق.

يمرّ باقي الليل مثل مُذَنَّب منطلقٍ في الهواء. نرقص أنا وسامي كلّ دبكة. نمضي الوقت أنا وأبناء عمومتي من رام الله معًا. نوال أيضًا عمرها ثلاث عشرة سنة وحكيم عمره أربع عشرة سنة. عندما نتعب من الرقص، نأخذ أطباق الحلوى الخاصّة بنا ونجلس في حافّة القاعة، بعيدًا عن حشود الناس الذين لا يزالون يرقصون

وهي تدفن رأسها في كتف بابا. يقبّل قمّة رأسها. تذهلني عاطفتهما وحبّهما. أشعر بالدفء والخدر من الداخل. يقول: «لا أزال أبدو أكثر شخص سخافة في حفل الزفاف، لذلك ليس أمامك ما تقلقي بشأنه.»

عندما ينادي رئيس المراسم أسماءنا نسير عبر الباب المزدوج على سجّادة حمراء طويلة. القاعة كبيرة. هناك ما يزيد عن ثلاثمائة ضيف يشاهدوننا نمشي عبر السجّادة الحمراء للانضمام لحفل الزفاف. محمد ـ في حالة انبهار من كلّ شيء – هادئ بين ذارعَيّ، منشغل تمامًا بالنظر إلى الجميع. لا يكاد طارق وسوزان أن يلمس كلّ منهما يدَي الآخر ولكنّهما على الأقلّ يقفان جنبًا إلى جنب. الكلّ يشاهدوننا، ينظرون إلى وجوهنا، ويصفّقون ويبتسمون. ستّي زينب تجلس عند رأس الطاولة ونحن نتبادل الابتسامات العريضة. إنّني خائفة وخجولة إلا أنّني مبتهجة ومنتعشة بفعل الطنين الذي في الهواء ومرح الموسيقى وصخبها.

نأخذ مكاننا إلى جوار ماما وبابا، ويدعو رئيس المراسم الجميع للوقوف استعدادًا لدخول أحمد وچيهان. تفتح الأبواب ويدخل العروسان بطيئًا، ويقود فريق الزفة الطريق أمامهما. هناك رجلان يضربان طبولًا ضخمة مربوطة إلى خصر كلّ منهما. هناك رجل آخر يعزف على العود. رجلان آخران يقفزان ويرقصان أمام أحمد وچيهان، يقودانهما إلى منطقة الرقص في وسط القاعة. يصفّق الضيوف ويبتهجون ويتركون مقاعدهم للانضمام إلى الزفة. أنضمّ أنا إلى صفّ الدبكة ونشقّ طريقنا في دائرة حول أحمد وچيهان اللذَين يرقصان في الوسط.

يجري سامي إليّ ويدخل في صفّ الدبكة، ويأخذ يدَيّ ويريحني

تركّز چيهان بعد ذلك على طارق. «طارق، من الأفضل ألا تخطئ وتسبب أيّ مشاكل! تذكر كيف تمرَّنّا؟ تمشي أنت داخلًا مع سوزان وحياة ومحمّد وسوف يريكم شخص من القاعة مكان الوقوف.»

«من هي سوزان؟»

«ابنة عمّ أحمد. أنت تعلم ذلك.»

«محمّد لا يمكنه المشي.»

تدير چيهان عينَيها. «حياة تمسك به، يا سخيف.»

«حسنًا، لا أريد أن أمسك يدها».

تقول چيهان من خلال أسنانها وهي تصر عليها: «لقد ناقشنا هذا بالفعل.»

«حسنًا، لن أفعل ذلك. إنّها فتاة.»

«طارق.»

يقول أحمد وهو يحضن سوزان حضنًا حنونًا: «إنّها لن تعضّ.» تنظر سوزان إلى طارق وتُصدر فحيحًا.

يُخرج طارق لسانه لها وتنظر چيهان إليه نظرة مهدِّدة. «سوف أكسر رأسك إن أنت أخطأت وسبّبت أيّ مشاكل!»

يدخل صاحب القاعة. يقول لهم: «حان الوقت.»

نصطفّ خارج الأبواب ذات الضلفتَين، تغرق ثرثرتنا العصبية فجأة في الموسيقى الصاخبة وصوت رئيس المراسم مقدّمًا والدي أحمد. تفتح الأبواب ويدخل والدا أحمد إلى القاعة. تنفجر القاعة في التصفيق.

بعد ذلك ماما وبابا. «إنّني خائفة جدًّا!» تقول ماما بصوت عالٍ،

لحفلات الزفاف والزواج، ولسنا نحن حفل الزفاف الوحيد على الطريق الذي يتنافس للفت انتباه النظارة والمشاهدين.

نصل إلى مكان الاحتفال. والدا أحمد في الانتظار ويصفّق الجمع الصغير الموجود خارج القاعة ويهلّل. يدخل الضيوف ويأخذون مقاعدهم. نقبّل كلّنا والدَي أحمد وأسرته ونحضنهم. تضع أم أحمد علامة أحمر شفاه على خدّ ماما. إحدى عمّات أحمد تفوح من فمها رائحة الثوم.

يقودنا صاحب القاعة إلى غرفة حفل الزفاف.

«سأراك بالداخل» – أقول لسامي وهو يسير متتبّعًا عمتو كريستينا وعمّو جوزيف.

خالتو سمية، التي قابلتنا في المقدّمة، تأخذ ستّي زينب إلى الداخل لتُجلسها. أتبع ماما وبابا وطارق إلى غرفة حفل الزفاف، ومحمد بين ذراعَيّ.

تقول چيهان: «إنّني خائفة جدًّا!»

تمسح ماما علامة أحمر الشفاه من على وجهها. «سوف تكونين على ما يرام!»

تقول چيهان: «بابا، تذكّر أن تحيّي الضيوف بيدك وأنت تدخل.»

«نعم، نعم بالطبع!»

«واحرص على أن يلتقط المصوّر صورة لك وأنت تبتسم له وتلوّح بيدك.»

«نعم يا حبيبتي.» يلتفت بابا إلى والد أحمد. «مثل جنرال عسكري، صحّ؟» ويضحكان.

تسأل أحمد مداعبة: «هل ستأتي لإنقاذي عندما يمرّرون أجهزة كشف المعادن تحت طوق فستاني؟»

يردّ أحمد قائلًا: «سوف أكسر أرجلهم إن تجرّأوا على ذلك»؛ ولكنّنا جميعًا نعلم أنّ شجاعته لا معنى لها. نضحك من أجل خاطره على أيّة حال.

عندما تضغط چيهان عابرة من خلال أحد الأبواب المعدنية وينطلق جهاز الإنذار عاليًا، يقترب منها أحد الجنود ويقوم سريعًا بتمرير جهاز كشف المعادن فوق جسمها.

تشرح له چيهان الأمر: «إنّها مجوهراتي.»

يقول الجنديّ: «آسف ينبغي عليّ أن أفحص وأتحقّق.» إنّه شابّ، ربّما يكون في التاسعة عشرة من عمره، له وجه أملس وعينان كبيرتان رماديتا اللون.

تنظر چيهان للخلف وتنادي علينا: «على الأقلّ أعرف أنّ زوجي ليس بخيلًا. انظروا كم الطنين الذي يصدر بسببي.»

يقول بابا لأحمد: «لديها حقّ. لديها من الذهب ما يكفي لأن يحجزنا جميعًا حتّى يوم غد.»

بعد ساعة من ذلك كنّا قد عبرنا جميعًا خلال عمليات الفحص لنقابل سيّاراتنا وحافلاتنا على الجانب الآخر. نساعد چيهان في الصعود إلى سيّارة الزفاف مرّة أخرى، تعطيها ماما حقيبة مليئة بمزيل العرق، ومناشف أطفال معطرة، وعطر.

تقول ماما في إصرار: «إليك، أنعشي نفسك.»

ندخل رام الله بعد ذلك مباشرة، مغنّين بصوت عال، معلنين عاليًا وصولنا للشوارع. اليوم يوم جمعة، اليوم الأكثر شيوعًا بالنسبة

الدربُكّة. «يعلم الله أنّنا سنوصل چيهان بالضحك والرقص» – تقول ذلك وتبدأ في التصفيق بيدَيها. نبدأ جميعنا في الغناء.

تقول ستّي زينب لماما موبّخة: «ياللا، توقّفي عن البكاء وانضمّي إلينا يا نور. كان يمكن أن تكون الأشياء أسوأ من ذلك.»

تردّ عليها ماما تلقائيًّا: «نعم يامّا».

عندما يستقرّ أحمد وچيهان في مقاعدهما في سيّارة الزفاف، تلتفت چيهان لتواجهنا من المرآة الخلفية وتلوّح بيدها في حماسة.

«مرحى!» – نصيح ونواصل الغناء والضرب بأيدينا على الكراسي من الخلف على صوت ضربات الدربُكّة.

المحطّة التالية هي محطّة قلنديا. تنضمّ السيّارة التي نستقلها إلى ركب السيّارات والحافلات وسيارات الأجرة للعبور من خلال معبر المركبات. ننزل من سيّاراتنا. تندفع ماما إلى سيّارة الزفاف وتساعد چيهان في الخروج. نحاول أنا وماما وعمتو كريستينا رفع فستان زفاف چيهان من على الأرض ونحن نقودها للعبور من خلال معبر الركّاب.

ندخل المحطّة. إنّها متاهة من أبواب معدنية دوارة، وأجهزة كشف المعادن، ودهاليز معدنية. يذكّرني ذلك بحظيرة حيوانات في مزرعة في عرض في التلفزيون في أحد الأيّام. الطابور طويل ويحدّق الناس في چيهان وأحمد ويهنّئونهما. عندما يأتي الدور على چيهان، نساعدها في التعامل مع فستان زفافها عند العبور من خلال الأبواب الدوّارة. ماما محبَطة وتسبّ بصوت عال. أحمد متجهّم إلا أنّه هادئ. چيهان متضجّرة بشكل واضح إلا أنّها تنجح في المزاح بشأن الموقف.

«ماما!» أصيح من نافذة السيّارة، على صرخات محمّد. «أرجوك ارجعي!»

يأخذ بابا ذراع ماما سريعًا ويقودها عائدًا إلى سيّارة الركّاب. بعد انتهاء الجنديّ من مهمّته يستدير نحو السيارة. تغوص ماما في مقعدها وتحدّق في كآبة من نافذة السيّارة. يواصل محمد البكاء وأهدهده أنا بين ذارعيّ، لا أجرؤ على أن أثقل به ماما.

تقول لها عمتو كريستينا: «امسحي دموعك يا نور. سوف نعبر في نهاية الأمر.»

يخرج أحمد من السيّارة أوّلًا. تحاول چيهان الخروج، ولكنّ فستان زفافها كبير جدًّا لدرجة أنّه يتوجّب عليها أوّلًا أن ترفع الطبقات التي في المقدّمة حتّى تتجنّب أن تطأ على النسيج الحريري بقدمَيها. ينحني أحمد لأسفل ليساعدها، وتنجح أخيرًا في الخروج دون أن تطأ بقدمَيها على الفستان.

«فستان زفافها. التراب والقاذورات...» تقول إحدى الضيوف مع طقطقة من لسانها.

يقول سامي لي: «هذا هو السبب الذي يجعل الفساتين البيضاء غير معقولة.»

يضع أحمد ذراعًا حامية على ذراع چيهان. يقول الجنديّ شيئًا ما لأحمد، ويضع أحمد يده في جيبه، ويخرج بطاقة هويّته. تفتح چيهان قبضتها البيضاء الصغيرة وتُبرز هي أيضًا بطاقة هويّتها. ينظر الجنديّ إلى بطاقات الهويّة وبعد ذلك يومئ برأسه، محركًا يده ليشير بالسماح لهما بالعودة والصعود إلى السيّارة.

تلتفت ستّي زينب إلى أبي مازن وتطلب منه أن يطبّل على

تمرّ خمس وثلاثون دقيقة طويلة. يصرخ محمّد في كلّ دقيقة من هذه الدقائق. يرفض أن يذهب إلى بابا أو إليّ. ستّي زينب – في محاولة منها لجعله يبتسم – تبتسم في وجهه ابتسامة عريضة من فم لا أسنان فيه، وهو يصرخ حتّى يكاد يكسر السقف. يقفز طارق من مقعده وينطّ على قدم واحدة، مقلّدًا صوت القرد الذي غالبًا ما يجعل محمّد يدخل في نوبات جنونية من القهقهة لا يمكن السيطرة عليها. ولكنّ محمّد ليس في حالة مزاجية للقهقهة إطلاقًا. يطلق الركّاب الآخرون تعليقات عديمة الجدوى. «افحصي حفاضته.» «ربّما يكون جائعًا.» «ألم في الأذن؟»

تصاب ماما بالضجر والملل. تناولني محمّد وتنطلق مندفعة من سيّارة الركّاب الصغيرة، متجاهلة صيحات بابا عليها بأن تهدأ وهو يتبعها.

تسأل أحد الجنود: «كم من الوقت أكثر من ذلك؟ ابني يصرخ! إنّه حفل زفاف ابنتنا! نريد أن نعبر!»

يقول لها: «ينبغي عليكم الانتظار.» ويمشي بطيئًا إلى سيّارة الزفاف. يشير للسائق وچيهان وأحمد ويطلب منهم الخروج من السيّارة.

تصرخ ماما قائلة: «ولكن فستان زفافها سوف يتسخ!»

يقول لها في غضب: «ارجعي. لن يستغرق هذا طويلًا.»

تأخذ ماما في الصراخ الهستيري فجأة: «هذا يكفي! هل نحن نبدو مثل الإرهابيين بالنسبة لك؟»

«لا بأس، لا بأس» – يطمئن بابا الجنديّ في عصبية. «سوف تعود. ليست هناك مشكلة.»

به كان دون جدوى. لن يكون هناك أي أقارب للعريس ليعجبوا برائحة المطهّر في المنزل وخزائن المطبخ اللامعة.

تأخذ چيهان مجلسها إلى جوار أحمد في المقعد الخلفي من سيّارة الزفاف. الأشرطة البيضاء والرايات التي رُبطت بحقيبة السيّارة ترفرف مع النسيم الرقيق. نركب نحن في سيّارة ركّاب صغيرة. تجلس ماما إلى جوار طارق، ومحمّد في حجرها. تجلس ستّي زينب إلى جواري ويجلس بابا بمفرده. يملأ سامي وعمتو كريستينا وعمو جوزيف، مع بعض الضيوف من بيت لحم، الكراسي المتبقّية. يطلق سائق سيّارة الزفاف، صديق أحمد الحميم، بوق السيّارة وينطلق بها مسرعًا من منحنى الشارع. نتبعه سائرين خلفه عن كثب. استأجر ضيوف آخرون سيّارتَي ركّاب صغيرتَين، وهم يتبعوننا، ويتبعهم مجموعة الناس الذين رافقوا أحمد. يطلق السائق بوق السيّارة خلال الشوارع وينظر الناس إلينا ويلوّحون لنا بأيديهم.

أحضر أبو مازن معه دربُكّة صغيرة. يبدأ يطبّل. نغنّي ونمرح. أنظر إلى سامي وهو يبتسم ابتسامة عريضة باتّجاهي.

نسير بالسيّارات عبر وادي النار. عندما نصل إلى نقطة تفتيش الكونتينر يتلوّى بطني متحوّلًا إلى عُقَد. صفّ السيّارات وسيّارات الأجرة طويل بشكل مستحيل. من المعقول أنّنا تحرّكنا قبل الظهر حيث إنّ الزفاف يبدأ في الساعة الخامسة. لا تبعد رام الله سوى اثنين وعشرين كيلومترًا تقريبًا عنّا، ولكنّ المسافة كانت أشبه بمائة كيلومتر. يفحص الجنود بطاقات الهوية. تستدير چيهان لتواجهنا من خلال زجاج السيارة الخلفي. هناك تعبير مرهق على وجهها، وتميل برأسها على كتف أحمد.

ويرقصون الدبكة حوله، وهم يضربون الأرض بأقدامهم كما لو كانوا يريدون أن ينبِّهوا الأرض أنّها هي أيضًا ينبغي أن تفرح وتمرح في زواج أحمد وچيهان. يصفق الجمع ويغنون حول أحمد، وينشدون قائلين:

عريسنا زين الشباب زين الشباب عريسنا
عريسنا عنتر عبس عنتر عبس عريسنا
الشمس بتعرف انّو عنّا عريس اليوم
عريسنا شمس الضحى طلب عروسو ما استحى

نساعد نحن چيهان في التعامل مع فستانها وهي تهبط درجات السلم. ألاحظ أن يدَي چيهان ترتعشان. يضغط بابا بشدّة على إحدى اليدَين ويبتسم في وجهها ابتسامة عطف وحنان.

عندما نصل الطابق الأرضي، يدخل أحمد من الباب. يقبّل بابا وماما ويحضنهما. ألاحظ ابتسامته الحمقاء وهو ينظر إلى چيهان، وأتعجّب كيف أدّى به حبّه لچيهان إلى كلّ هذا الحنان وهذه الرقّة. تزداد الفرحة والسعادة بداخلي.

يسأله بابا: «ولكن أين والداك؟» يقول أحمد: «ماما كانت مسرورة ومنفعلة للغاية حتّى أنّها نسيت بطاقتها، فلم تستطع اجتياز نقطة التفتيش».

يقول بابا: «يا للأسف.»

تضحك ماما. «إنّني لا ألومها. كدتُ أنسى كيس نقودي، كنتُ قلقة للغاية!»

يقول أحمد: «إنّهم في انتظارنا في رام الله».

أوّل فكرة خطرت لي هي أنّ كلّ التنظيف الذي جعلتنا ماما نقوم

يسأل طارق: «ماذا عن چيهان؟».

«نعم، نعم، إنّها جميلة، كما ينبغي أن تكون كلّ عروس، ولكن انظر إلى حياة. فقط انظر إليها. قمر! مضيئة وضّاحة!» يفكّر طارق للحظة. يقول: «سوف أخبر چيهان.»

يقول بابا: «تعال هنا.» طارق في منتهى السعادة لأن يقفز في حجر بابا.

أخيرًا يفتح باب غرفة النوم وتظهر ماما منه. تصيح وهي تُهوّي وجهها بيدها: «أوه، إنها فاتنة تخطف الأبصار. الحمد لله أنّ هذا مقاوم للماء. أوه، يا فؤاد، فقط انتظر وشاهد ابنتك الكبرى. فقط انتظر وشاهد.»

عندئذٍ تدخل چيهان إلى غرفة الجلوس. تبدأ ستّي زينب تزغرد وتبتسم چيهان ابتهاجًا لنا. تقع عيناها على عينَي بابا. يمدّ ذراعيه لها وهذه هي المرّة الأولى التي أراه يبكي فيها.

* * *

يتلقّى بابا مكالمة هاتفية تخبره بأنّ العريس في طريقه إلينا. نسمع أصواتًا لا تنقطع من أبواق السيّارات على البعد، يصبح صوت الأبواق أعلى عندما تدخل السيارات وحافلات النقل الجماعي إلى شارعنا. نندفع أنا وطارق إلى النافذة ونرى الأولاد ومجموعة من الرجال يحيطون بأحمد، وهم يغنّون أغنية الزفاف. يضرب أحد الرجال على طبلة كبيرة معلّقة حول وسطه. عيناه متوهّجتان في وجهه المتورّد حمرة، ويشكّل بعض الرجال وبعض النساء حلقة

الماكياج لديها: «همم، سوف يتحتّم علينا أن نستخدم المزيد من كريم الأساس. لا تقلقي. يمكنني أن أخفي الندوب التي في وجهك بنفس الطريقة التي أخفي بها حبّ الشباب الذي في وجهي. أنت فائقة الجمال على أيّة حال. انظري إلى عينَيك الواسعتَين. وهاتَين الوجنتَين. مثل أمّك تمامًا. بل إنّ العروس نفسها ليس عندها ذلك النوع من المواصفات والدقّة، ولكن ذلك بيني وبينك، تفهمين؟»

تبتسم لي ابتسامة عريضة وتحاول ألا تضحك. تطلب منّي أن أجلس وأن أمسح وجهي وأنظّفه بمناديل مسح الأطفال. تدندن وتتحدّث مع نفسها وهي تعمل في وجهي. «همم، ليس ذلك اللون، خفيف أكثر من اللازم... آآه، نعم، هذا ممتاز...»

عندما تنتهي في النهاية، أنتظر في ذعر وارتعاش وهي تُخرج مرآة يد من صندوقها. أكاد أنفجر ببكاء الارتياح عندما أرى أنّها قد غطّت الندوب التي في وجهي تحت طبقات من كريم الأساس والمساحيق. أجلس ساكنة، والمرآة في يدي، وأنا أدرس وجهي وأتأمله. للمرة الأولى منذ ذلك اليوم أشعر بأنّني جميلة مرّة أخرى.

عندما نكون كلّنا جاهزين، ننتظر چيهان وماما في غرفة الجلوس. يجلس محمد في حجري وهو مرتدٍ بذلة أطفال للسهرة، وهو يغرغر ويهدل ويلعب في رباط رقبته الأحمر. نتبادل أنا وطارق التهامه بالقبلات. يظلّ بابا وستّي زينب يحدّقان فيّ، ويعلّقان على مدى ما أبدو عليه من جمال، ما يجعلني أحمرّ خجلًا.

«ملكة جمال!» تقول ستّي زينب في حماسة. «ملكة جمال العائلة!»

على رأسي وربطه بشريط وردي لإحداث الأثر التامّ المطلوب.

عندما يتمّ الانتهاء من تكويم شعر چيهان عاليًا، ويُرَشّ بمثبّت الشعر حتّى يستقرّ في مكانه، فإنّها تقوم بفحص كامل لشعري.

«ممتاز»، تعلن ذلك وبعدها تقودني نحو الخارج إلى السيّارة حيث بابا في انتظارنا.

تصل فنّانة الماكياج – شمس – إلى شقّتنا بمجرّد عودتنا تقريبًا. تضع الكثير من المساحيق على وجه چيهان لدرجة أنّني أتساءل إن كانت چيهان ستحتاج إلى إزميل لإزالتها كلّها. تنشغل شمس بعد ذلك بجلبتها مع ماما بينما أساعد أنا ستّي زينب في تغيير ملابسها لترتدي جلبابًا فضفاضًا فاتح اللون. ترتعش يداها وأنا أساعدها في لبس خواتمها. عندما أنتهي من ذلك، أقبّل يدها، أرفعها إلى جبهتي، وبعد ذلك أقبّلها مرّة أخرى.

تظهر ماما من غرفة الجلوس بعد نصف ساعة من ذلك، وعيناها مشرقتان بالكحل، وخدّاها ملوّنان وأحمران، وشفتاها ملساوان وحمراوان. يزداد الفخر داخلي. تلمح نظرتي إليها وتبتسم في خجل.

تسأل قائلة: «أين أختك؟»

«في انتظارك لتساعديها في لبس فستانها.»

تذهب إلى غرفة النوم وتخرج شمس من غرفة الجلوس وتنادي باسمي.

تتصلّب العضلات في رقبتي بينما أرى عينَيها تتتبعان الندوب التي في وجهي.

تقول وهي تضرب بيدها على ذقنها وهي تتفحّص صندوق

تقول ماما: «ولكنّهم إلى الغرب من هنا. ستكون الأمور على ما يرام، أليس كذلك؟»

«نعم. كما إنّه يقول أيضًا إنّ هناك نقط تفتيش طائرة – معذرة؟ أوه، هذا في منطقة الخليل.»

«حسنًا، ليس لنا شأن بهذا! أووف!»

«نعم، أعرف ذلك. كلا، إنّني أتحدّث مع نور. حسنًا، هل تظنّ أنّ نقطة تفتيش الكونتينر ستكون على ما يرام؟ أنت لا تعلم. يا زلمة، أعرف أنّك لا يمكن أن تكون متأكّدًا...»

نستيقظ في الفجر في صباح اليوم التالي. يوصلنا بابا بالسيّارة أنا وچيهان إلى مصفّف الشعر حيث يقوم رجل غريب بشعر أسود فاحم مستعار بفرد شعرنا حتّى يسهل تسريحه وتصفيفه. تتدلّى سيجارة من بين شفتَيه كما لو كانت معلّقة بخيط غير مرئي. لا يمكنني أن أُبقي عينَيّ بعيدًا عن الدخان الذي يزداد كلّما احترقت السيجارة. يواصل الشدّ والجذب في شعري حتّى أشعر وكأنّ جذور الشعر تحترق. يتجعّد جبينه، عيناه تصابان بالحول من فرط التركيز. تتأرجح حبّات العرق أسفل خطّ شعره الزائف مباشرة. ولكنّ رماد السيجارة لا يسقط أبدًا. في الثانية الأخيرة، يعرف بطريقة ما متى يضع الرماد في منفضة سجائر لها شكل حبّة الأناناس. عندما يكون الشعر أخيرًا قد احترق، واختفت التجاعيد الطبيعية، يتمّ تقديم مكواة تجعيد الشعر. تقوم يداه بكلّ خفّة، وهما تحدثان صوت «كليك كلاك»، بتحريك المكواة التي تغلي بشدّة مثل ساحر يوازن قضبان النار. يقوم مرّة أخرى بشد وجذب شعري حتّى يصبح كلّه أخيرًا مجعّدًا، ويتمّ إلقاء نصف منه للوراء